السياسة تفوز في المهرجان الدولي للفيلم بمراكش:

حديث عن الثقافة الجنسية يتجدد مع ظهور عادات السينما الغربية في البلاد العربية

مراكش ـ «القدس العربي»
ـ من عبد الغني بلوط:

خطفت الأفلام السياسية الواقعية الأضواء بمدينة مراكش، وحصدت جميع جوائز المهرجان الأربعة للمهرجان الدولي للفيلم بمراكش في دورته السادسة والذي شهد مشاركة 15 فيلما من أربعة عشر بلدا، فيما خيب الفيلمان المغربيان المشاركان في المسابقة الرسمية الآمال ولم يحصلا على أي تتويج.

ونال الفيلم الألماني «الببغاء الأحمر» لمخرجه دومينيك كراف النجمة الذهبية وحصل أيضا الممثل الألماني الشاب ماكس ريميلت الذي لعب دورا رئيسيا في الفيلم نفسه جائزة أحسن دور رجالي، فيما توجت الممثلة الشابة السوداء «فاتو نداي» بجائزة أحسن دور نسائي حين لعبت دور فتاة نادلة شابة في الفيلم الكندي «يوم أحد بكيكالي» لمخرجه روبير فافر، كما توج الفيلم الروماني «هيرتيا في الباسترا» لمخرجه الشاب رادو مونطيان بجائزة لجنة التحكيم وهو ثاني فيلم لهذا المخرج الشاب بعد فيلم «الغضب» المنتج سنة 2002.

قبل الاعلان عن النتائج يوم السبت بقصر المؤتمرات فهم كثير من الحاضرين تلميحات رومان بوانسكي رئيس لجنة التحكيم الى الأفلام الفائزة حين قال ان الحبكة السينمائية وحدها تحكمت في اختيار الأفلام المدونة وليس الآراء الأيديولوجية والسياسية أو محاباة هذا البلد أو ذاك، مما فهم منه أن الفيلم المغربي «انهض يا مغرب» والذي تحدث عنه كثيرا لنيل احدى الجوائز لم ينل رضا لجنة التحكيم المكونة من كل من الممثلة الفرنسية ساندرين بونير والممثل الفرنسي من أصل مغربي جمال الدبوز والممثلة والمخرجة البرتغالية ماريا ميديروس والمخرج وكاتب السيناريو الهندي بان نالان والمخرج المصري يسري نصر الله والممثلة الفرنسية ليدفين سامبي والممثل الاسباني باز فيكا والممثل الأسترالي دافيد وينهام...

وبدا الممثل الشاب ماكس ريميلت متأثرا كثيرا وهو يتسلم بعد تسليمه جائزة أحسن ممثل رجالي، الجائزة الذهبية نيابة عن المخرج دومينيك كراف الذي حبسه «عمل سينمائي» عن حضور اختتام المهرجان وتسليم الجائزة وهو نقطة أخرى حسبت له حين اعتبر أن السينمائي الذي يحب العمل ويقدسه يستحق فعلا التتويج، وختم كلامه بكلمة شكر حرص كثير من غير العرب والفرنسيين الذين صعدوا الى المنصة على النطق بها احتراما للجمهور المراكشي الحاضر. ولم يتوقع كثير من الجمهور والمتتبعين حصول الفيلم على الجائزة خاصة مع حضور أفلام جميلة أخرى مثل الفيلم الايطالي «في بيتنا» حيث تجسد مدينة ميلانو في يومنا الحاضر مكان وزمان حبكة الفيلم التي يتشابك فيها عن وعي أو غير وعي مصير عدة أشخاص بعلاقتهم بالمال. ايكو واحد منهم، بنكي مشبوه تحاول ريتا ضابطة في شرطة الجرائم المالية القاء القبض عليه، ومثل الفيلم الايراني «تدريجيا» حيث يعلم محمود (عامل بالسكة الحديدية) أن زوجته اختفت منذ أسبوع، يغادر عمله للبحث عنها و تتكاثر على أسماعه الأقاويل و الاشاعات .ومثل الفيلم الأمريكي «بوبي» الذي يحكي تشابك مسارات ثمانية أشخاص يوم 6 حزيران (يونيو) 1968 الذي عرف اغتيال السيناتور روبير كنيدي مرشح الحزب الديمقراطي للانتخابات الرئاسية في بهو بفندق بلوس أنجليس.

ويروي «الببغاء الأحمر» الفيلم الحاصل على النجمة الذهبية العلاقة المعقدة بين ثلاث شخصيات أثناء الأشهر الأخيرة قبل بناء الجدار 1961، حيث يربط الفيلم بين الحب والتحرر الجنسي والسياسة والتاريخ. سيغي أو الممثل (ماكس ريميلت) ذو العشرين سنة يذهب الى مدينة دريسدن في ألمانيا الشرقية من أجل العمل، ويحاول أن يندمج في مجموعة تغني على النغمات الغربية وترقص على ايقاع «الفيس برسلي» ، لكن الشرطة تقتحم المكان وتحطم جميع الأشرطة الغنائية، وهو مشهد من المشاهد الذي حاول المخرج أن يظهر فيها للجمهور الاختلاف بين العيش في المانيا الشرقية والمانيا الغربية والمشاكل الحياتية للشباب في دولة اشتراكية، حينها يفضل الكثيرون مغادرة البلاد الى الجهة الغربية قبل بناء الجدار.

و يروي فيلم « يوم أحد بكيكالي» أنه في ربيع 1994 بكيكالي عاصمة رواندا في قلب أفريقيا، يصور برنار فالكور فيلما وثائقيا حول مرض السيدا في وقت كانت فيه الصراعات العرقية بين التوتسي و الهوتو تتعمق .أما الفيلم الروماني «هيرتيا فا في ألباسترا» فيحكي عن شاب مقتنع أنه من واجب كل مواطن روماني أن يحارب أتباع شاو شيسكو بعد سنوات الديكتاتورية الطويلة التي ميزت حكمه، فيقرر الجندي كوستي ترك الوحدة التي ينتمي اليها و الانخراط في الثورة. أما بخصوص الفيلم المغربي «انهض يا مغرب» أو «نوض تكعد» بالدارجة المغربية الذي خرج خاوي الوفاض ولم تحابه لجنة التحكيم التي ترأسها المخرج رومان بولانسكي، فاتضح أن المخرجة المغربية كررت نفسها ولم تحترم أذواق الجمهور المغربي، وكان فيلمها حسب مراقبين أسوأ فيلم في المسابقة حتى وصفه البعض بالورطة.

وبدت نرجس النجار متوترة جدا في الندوة الصحافية التي عقدتها بعد عرض الفيلم حيث وجهت الاهانة هنا وهناك في حق صحافيين حاولوا نقد الفيلم، على اعتبار أنها استغلت العلم المغربي ورعاية خاصة من أجل انتاج فيلم مغربي لا يشرف المغاربة.

وبدت بعض اللقطات محشوة في الفيلم مثل لقطات أجساد نساء عاريات في الحمام الشعبي وقبلات حارة طويلة بين الممثلة الشابة والممثل أثناء الباسه القميص الوطني في مباراة نهائية.

وفي حين بدأت القصة جميلة بين لاعب كرة قدم يحاول أن يرى بلده أجمل بلد في العالم، وفي الوقت الذي كان يعتقد فيه الجميع أن الفيلم سيحكي عن قصة نهضة بلد وشعب في طريق الحرية والديمقراطية واحترام حقوق الانسان ومشاركة الجميع في هذا البناء الضخم، ركنت المخرجة الى أفكار مسبقة حول الدين والحرية والشرف بات كثير من المغاربة يرفضونها، فهي تحكي وجهة نظر واحدة موجهة، وتكلم أبطالها باللغة الفرنسية في الفيلم حين يتعلق الأمر بنقل أفكارها الى الجمهور فيما تحتقر المشاعر الدينية بسذاجة مرة وبجهل مرة أخرى، وتلصق التطرف الى أمور حياتية بسيطة مثل بيع التسابيح والصلاة، وتحاول أن تصنع صراعا للأجيال متوهما في الخيال بعيدا عن التخيل الشعبي، حتى بدا ذلك واضحا بين عرافتين واحدة تجسد دور عرافة شابة تعيش صراعا يوميا مع منافستها العرافة المسنة إذ رغم نجاح العرافة الشابة مهنيا، ورغم شهرتها الواسعة في الضريح الذي تستقبل فيه روادها، فانها تسعى الى مغادرته نحو مكان آخر لايمانها بأن مكانها ليس في المغرب، وهذا الرحيل يدخل في لب موضوع الفيلم والمتمثل في مغرب جديد تطمح اليه المخرجة وليس كل المغاربة.

كثير من أحلام المغاربة تحولت في الفيلم الى كابوس، ومن اللقطات التي استفزت الجمهور، انه حين يخفق المغرب في الحصول على شرف تنظيم كأس العالم واعلان جوزيف بلاتير جمهورية افريقيا الجنوبية فائزا بهذا التنظيم، تعمد المخرجة الى تنزيل العلم المغربي وكأنها تعلن عن موت حقبة ذهبية للأبطال المغاربة في مجال كرة القدم والقطع مع الماضي بصفة نهائية.

وترى المخرجة نفسها كما قالت في ندوتها الصحافية في بطلات الفيلم وعبرت عن رأيها حول الحرية والايمان واستهترت بالمشاهد المغربي حين حولت السجود في الصلاة الى أربع سجدات متتالية وأحذية كل المصلين الى أحذية رياضية يصلون في شكل دائري في مسجد كبير بالدار البيضاء.

أكيد أن الجمهور من عشاق الرياضة استمتعوا بالفيلم لأنه كرم العربي بن مبارك أحد أبطال الكرة في المغرب وأرجع الهيبة والكرامة الى ثلاثة لاعبين مغاربة مغضوب عليهم في الفريق الوطني وحول الفيلم الى ما يشبه البرامج الرياضية المليئة باللقطات الحاسمة، وأكيد أن عشاق الأغنية الشعبية والفرنسية والدولية استمتعوا بالفيلم ورأوا فيه كليبات موسيقية عالية الجودة في التصوير والأداء لكنها معزولة عن السياق، لكن عشاق السينما خاب أملهم وتحسروا ورأوا كيف تعطى امكانيات هائلة بالمجان قدرت بالملايين من أجل انتاج فيلم رديء، فيم تاوه البعض الآخر متمنيا ألا يكون الفيلم ضمن المهرجان أو بل بالأحرى ضمن المسابقة.

من جانب آخر لم يستسغ عدد من النقاد السينمائيين مستوى عدد من الأفلام المعروضة في المهرجان على هامش أفلام المسابقة وتساءلوا ان كانت اللجنة قد وضعت معايير لانتقاء هذه الأفلام على غرار أفلام المسابقة، وتميزت كل الأفلام المعروضة غير الخاضعة للرقابة خاصة الفيلم الفرنسي « الثعبان» والفيلم المصري «عمارة يعقوبيان» بعرض لقطات جنسية مثيرة ألهبت حماس الشباب الحاضر في قاعة سينما قصر المؤتمرات ودفعتهم الى الصفير والعويل بعيدا عن الأعراف السينمائية، وحينت الحديث عن الفرق بين دور السينما في التثقيف الجنسي والتهييج الجنسي، حيث شوهدت لقطات واقعية لشباب وشباب داخل أروقة قصر المؤتمرات يدخنون السجائر ويتبادلون القبلات كما يحصل في الفيلم. ولم تمنع لافتة مكتوبة في باب قصر المؤتمرات «ممنوع على أقل من 18 سنة» كثير من الأطفال ممن هم دون ذلك السن من ولوج قاعات السينما ومشاهدة لقطات لا تجب حتى للكبار.الممثلون المغاربة انقادوا مع موجة التحرر السينمائي وشوهد أحدهم يقبل آخر في فمه في لقطة لا تشاهد الا في مهرجانات أمريكا وأوروبا، مما جعل الحديث عن الثقافة الجنسية يتجدد مع ظهور عادات السينما الغربية في البلاد العربية. ومن الجانب التنظيمي فقد أسدل المهرجان الدولي للفيلم بمراكش الستار على دورته السادسة وسط انتقادات شديدة اللهجة حول تهميش اللغة العربية والكفاءات الوطنية المغربية وكثرة أخطاء ادارته الفرنسية، وباقصاء عدد من الصحافيين المغاربة عن حضور حفلة الاختتام ..

واعتبر الاعلاميون المشاركون في تغطية المهرجان الدولي للفيلم بمراكش، كما ذكر ذلك موقع المراكشية الالكتروني، أن الصحافة المكتوبة بالعربية لم يكن مرحبا بها في المهرجان موازاة مع الصحافة الأجنبية. ورأوا أن الاهتمام الأكبر كان يولى للصحافيين الآتين من خارج الحدود، وبكيفية أكثر بالمنابر الاعلامية الناطقة بلغة منظمي المهرجان.

وذكر أكثر من منبر صحافي مغربي التضييق على مراسله، ورفعت شكاوى منذ الدورة الثانية للمهرجان، وأن هناك سياسة متبعة من قبل القائمين عليه ترمي الى تسويقه للخارج وجعله واجهة ليس الا، واذا كان العديد من الزملاء الكتبة باللغة العربية يتجشمون متاعب السفر من مدن قريبة او بعيدة عن مراكش لمواكبة فعاليات المهرجان، ليجدوا في الأخير بعد أن يتم اعتماد بعضهم وابعاد البعض الآخر بأنهم من الصنف الذي لم يجد المنظمون منه بدّاً فيبدأ التعامل معهم على أنهم ضيوف و من الصنف الثاني.

وكان صحافي من وكالة اعلامية عمومية بالمغرب بعد أن انتدبته المؤسسة للمشاركة في تغطية المهرجان قد استعان بأصدقاء له في موضوع الايواء والأكل بعد أن أخل المنظمون بوعدهم في اعتماده كما كان منتظرا.

الأغرب في كل هذا هو أن الصحافيين المغاربة والمحليين على الخصوص الذين تم اعتمادهم لم يسمح لهم بحضور حفلات الافتتاح والاختتام وما بينهما من عروض بعض الأفلام المرشحة، وأخرى على هامش المسابقة التي فرض لمشاهدتها دعوات خاصة اضافة الى البادج. .كما لم يسمح لهم بحضور أي نشاط آخر على هامش المهرجان ولو كان حفل تكريم فنان أو ممثل داخل فضاء قصر المؤتمرات نفسه. بل ان «البادجات» الممنوحة للصحافة لم تتح لهم متابعة حتى الأفلام التي لم يتمكنوا من متابعتها في فضاء قصر المؤتمرات واضطروا لمشاهدتها في القاعات السينمائية.

السياسة أيضا كانت حاضرة في الوقفة الاحتجاجية التي نظمها الممثل الساخر أحمد السنوسي (بزيز) الذي قال في بيان وزع على الصحافيين كتب بلغات مختلفة انه يريد أن يجعل من وقفته رسالة واضحة الى الفنانين والاعلاميين الأجانب يبين فيها الظلم الذي لحقه من جراء منع طال 16 سنة وكذلك حرمانه من لقاء جمهوره ومحاولة محو اسمه من الذاكرة الشعبية للمغاربة، وأيضا اتلاف أرشيفه من التلفزيون المغربي. وأضاف «هل تفضلون صوت حرية التعبير أو تكونون عملاء لأكذوبة تسمى المهرجان الدولي للفيلم بمراكش».

وأعلن بزيز أمام الجميع أنه تعرض للتهديد بالقتل فيما حصلت التجديد على رسائل تضامن من جمعيات حقوقية منها الجمعية المغربية لحقوق الانسان والمركز المغربي لحقوق الانسان تندد بالتهديدات بالقتل التي تعرض لها عبر الهاتف مع المطالبة بفتح تحقيق بشأنها والمتابعة القضائية للمسؤولين عنها، ومع المطالبة كذلك بحمايته من المخاطر ضد سلامته الشخصية وحقه في الحياة، كما اعتبرت أن معركة أحمد السنوسي من أجل حقوقه المهنية والابداعية كفنان هي جزء من النضال العام من أجل حرية الرأي والتعبير وحقوق الانسان، داعية كافة القوى والفعاليات الديمقراطية بالداخل والخارج الى التضامن الفعال معه.

هذا الوقفة تحولت الى نقاش «بوليميك» حيث أعلن وزير الاتصال عن نية استقالته اذا ما تم منع بزيز من التلفزيون العمومي في حين رد بزيز بالقول «أنا مستعد لأبرهن عن ذاك المنع، فقط حددوا لي موعدا وانا حاضر»، فيما شوهد ممثل مغربي آخر وهو يطوف في المهرجان الدولي للفيلم بمراكش بين الممثلين والفنانين المغاربة بورقة قال المتتبعون انها عريضة يراد لها أن تجمع أكبر عدد من التوقيعات من أجل ادانة الوقفة الاحتجاجية التي قام بها الفنان الساخر أحمد السنوسي (بزيز) في ليلة افتتاح المهرجان.

وتداول الحاضرون في المهرجان هذا التصرف ـ واعتبروه غريبا باعتبار أن النقابات لم تتخذ أي قرار في هذا الشأن باعتبار أن احتجاج أحمد السنوسي الذي كان مؤازرا بجمعية لحقوق الانسان كان موجها للمسؤولين الذين يحاصرونه حسب تعبيره وليس ضد الفنانين.

السياسة كانت حاضرة أيضا حين اختارت ادارة المهرجان تكريم الممثلة الأمريكية سوزان ساراندون وحين تحدث رومان بولنسكي المخرج السينمائي العالمي ورئيس لجنة التحكيم كان الكثيرون يستعرضون صورة سوزان في المهرجان حتى عندما قال بأن السينما أداة للتواصل، رغم أنها قد تستغل في أغراض أخرى لخلفيات سياسية. نفس الاحساس انتاب آخرين حين قال بخصوص الأفلام الطموحة التي تعتني بالجانب الفني وتعالج قضايا كونية، والتي ما تزال تدافع عن واقع السينما الحالية التي أصبحت تجارية بكل امتياز، على اعتبار وسائل التوزيع الضخمة التي اصطبحت تعطي الأولوية للأفلام التجارية، لكن بولانسكي أضاف أن الجمهور يبقى الحاسم في مسألة نجاح أو فشل العمل الفني، والحد من ظاهرة الأفلام التجارية، وكأنه يقول لسوزان أنت من اقصد وهذا الجمهور من أقصد .تشابهت قلوب رومان وسوزان وان كان البعض يحب أن يكون أمام الكاميرا والآخر خلفها، لكن الحدس الفني يبقى كما قال رومان هو القنطرة الحقيقية للوصول الى الجمهور.

لقطة من فيلم «الببغاء الاحمر» جائزة النجمة الذهبية

ملصق فيلم «يوم احد في كيكالي» جائزة احسن ممثلة

تداعيات

خريف البطريرك

عبد الكريم كاظم*

لعلَّ يوماً عصوفاً جارفاً عرماً آتٍ فترضيك عقباه وترضيني الجواهري

الرواية الأزلية لغابرييل غارسيا ماركيز (خريف البطريرك) تحكي على العكس تماماً من روايته المشهورة (مئة عام من العزلة) فهي تتناول قصة طاغية من طغاة أمريكا الوسطى في وطن لم يحدده الكاتب من منطقة الكاريبي ـ وهذه اشارة بالغة الأهمية تتميز بالوعي الحاد لدى الرائي ـ من هنا نستطيع الافصاح عن الصعوبة الكبيرة والرئيسية التي تواجه القارئ في هذه الرواية والتي تكمن أساساً في عملية اعادة ترتيب الأحداث بطريقة متسلسلة إذ يستخدم الرائي لتحقيق هذا الغرض الكثير من الرواة الذين يتحدثون بشكل متواصل ودائم بصيغة ضمير المتكلم وبالتالي نراهم وقد وضعوا أنفسهم أمام حالة من وجهات النظر المتعددة والمختلفة ـ في آن ـ لخدمة الخط العام المتعلق في موضوع السرد الروائي، لكن كل هذه الأمور تقال بمنتهى المهارة الروائية للكاتب خصوصاً في موضوعتي التأكيد والنفي ،في وقت واحد، بالاضافة إلى هؤلاء الرواة يبرز فجأة من بين ثنايا السرد راو يتحدث بصيغة ضمير الغائب حتى يكاد لا يشعر به القارئ بحيث ترتبط الأحداث بعضها ببعض في عالم تملؤه الغرائبية والدهشة والأحداث المتشابكة المحتشدة التي يبقى بها الزمن مغلقاً ومتحركاً ـ في ذات الوقت ـ بصورة دائرية تجعلنا نصل أثناء القراءة إلى الاعتقاد الجازم بأن هذه الرواية ليست رواية فحسب بل هي بمثابة دراسة معمقة لتوثيق الظلم عبر مراحل زمنية آنية تتعلق بالحدث الروائي أولاً ومستقبلية يتوقع حدوثها الكاتب غابرييل غارسيا ماركيز ثانياً من خلال وعيه وقراءته للاحداث المضطربة في منطقة الكاريبي.

تعود بداية الأحداث في الرواية إلى الطفولة الأولى للبطريرك ـ وهو الاسم الوحيد الذي يشار إليه في الرواية ـ اثناء فترة العهد الأخير لنظام النيابة الملكية لأسرة (غودوس)، وتندلع بعد حروب الاستقلال حرب أهلية بين الليبراليين من جهة والمحافظين من جهة أخرى لمدة زمنية تبلغ تقريباً احدى عشرة سنة ينتزع من خلالها السلطة ما يقارب أربعة عشر جنرالاً الواحد تلو الآخر ويكون في آخر هذه السلسلة من الجنرالات جنرال مستبد بصورة تفوق المعقول ويمتلك نزعة قوية إلى حد ما، تجرأ مرة على ان يرفض شروط ومطالب الانكليز، لكنه في نهاية الأمر يقدم على الانتحار مع كافة أفراد أسرته على أثر حركة مسلحة كان قد قام بها ضد البطريرك بايعاز وتوجيه من الانكليز أنفسهم وهكذا تمت العملية إلى ان تم ـ بواسطة الأنكليز والقوات المسلحة ـ تعيين وتنصيب البطريرك وهو الشخصية الأمية، الدموية، المستبدة والمنعدمة الضمير قائداً ورئيساً لهذه الجمهورية.

حين ظل الوضع الاقتصادي والسياسي، والحياتي العام يسير من سيء إلى اسوأ تعرض إلى بعض المتاعب ومع هذا تم تخليصه وإنقاذه بفضل جهود ومساعدة الأمريكيين الشماليين شريطة منحهم الحق الدائم في مسألة استثمار الثروات الكثيرة والمدفونة ولذلك نرى ان البطريرك قد بقي على سدة الحكم وسيطول بقاؤه بفضل تمتعه بحاسة شم تسمح له بان يحس الخطر في الوقت المناسب والمكان المفترض ولذلك نرى ـ أيضاً ـ ان ردة فعله تأتي بقسوة غير منتظرة وحجته ودليله لهذه المسألة هو منطقه الذي لا يقبل الجدل في الدفاع عن سلطته المستبدة وحكمه الجائر وحياته وصولاً إلى حاشيته ـ هذه الفقرة تحديداً تذكرني بحديث لصدام حسين يقول فيه ما معناه.. أنني أستطيع أن أعرف ما يضمره خصمي لي أو أي شخص آخر لمجرد النظر في عينيه ،هذا هو منطق الطغاة، ثم تتكرر المناورة/ المحاولة بشكل دوري كلما خرج منتصراً من الكمائن المنصوبة ومحاولات الاغتيال العديدة التي تعرض لها من كل حدب وصوب وحين يحاول بطريقته المخاتلة والمخادعة أن يذيع بياناً يتحدث فيه عن نواياه الطيبة القادمة او يعلن تصريحاً ما يمنح فيه العفو حتى تنطلق من جديد أساليب القمع بصورة أكثر وحشية مما كانت عليه سابقاً، وهناك مثال من ضمن الأحداث التي تجري في الرواية ، تلك المتمثلة بعملية اليانصيب التي تحاك بهدف ازاحته وإسقاطه.. فلكي يبقى رقم البطريرك فائزاً رابحاً على الدوام كان يعمل عند كل سحب للبطاقات احتجاز طفلين ويلقى بهما في غياهب سجونه وبمثل هذه الطريقة اختفى ما يقارب الألف طفل وهنا يبدأ الأهالي بالاحتجاج مطالبين الرأي العام بتفسيرات لما يحدث وباطلاق سراح هؤلاء الصغار وعندما يعلم البطريرك بما يجري يعمد إلى تفجير المركب الذي حشر فيه هذا العدد المأهول من الأطفال وهو في عرض البحر، وعلى أثر هذه القضية يكتشف فجأة أن شخصية (رودريغو دو اغيلار) هذا الشخص الذي منحه وده ووضع فيه ثقته هو العقل المدبر الأول لكل هذه المؤامرة المحاكة ضده فيقدم إلى وضعه في الفرن لشيه وتقديمه لاحقاً على طبق من الفضة إلى كل الجنرالات المشتركين والمتورطين الذين يجدون أنفسهم مضطرين لأكله خلال احدى حفلات العشاء السرية الضخمة التي كان يقيمها البطريرك بين فترة وأخرى.

ثمة آلية غريبة تحصل داخل الرواية تميز عهد هذا البطريرك تتمثل بعملية تقسيم وتوزيع الثروات بوصفها كما يعتقد ملكية خاصة لهم ـ أعني الحاشية ومن معهم خصوصاً أمه (بندثيون الفارادو) التي أعطاها بمرسوم ملكي صفة قديسة الوطن ـ على الرغم من أنهم في لحظة من اللحظات الكثيرة كانوا يتمنون التخلص منه بشتى الطرق التي قد تتاح لهم بسبب عناده وتخلفه الذي يهدد ـ كما يتصورون ـ استقرار الحكومة الذي قد يجعل حدوث انفجار ما ممكناً نتيجة حالة الاستياء العامة التي يشعر بها المدنيون والعسكريون على حد سواء أو لنقل بصورة متفاوتة ، وبعد مرور أكثر من قرن من الحرائق والقتل والتنكيل والتسلط يستنفد الوطن كل ثرواته وقواه ولم يبق سوى البحر الذي يجد البطريرك نفسه مضطراً للتنازل عنه للامريكيين الشماليين الذين يهددونه دائماً بعملية انزال جديد (للمارينز) وحين يموت البطريرك في نهاية الامر هرماً ووحيداً يبقى الخوف من رؤيته منبعثاً من جديد مصدر قلق وتوتر ، ـ من جهة عودته مجدداً وعدم تصديق رحيله من جهة مقابلة ـ ، وحين يصدر الاعلان التالي: (نعلن للملأ الخبر السار بان زمن الأبدية قد بلغ نهايته) حتى يتفجر الفرح.

مما تقدم من الحديث نستطيع أن نقول مرة أخرى بأن شخصية الدكتاتور في رواية خريف البطريرك هو النتاج الحتمي/ البديهي للجهل والعنف والقسوة التي يمكن أن يبلغها رجل معتوه عندما تضعه الظروف على رأس السلطة والواقع أن البطريرك هو ضحية أخرى يمكن أن تضاف إلى الضحايا التي يحكم عليها هو نفسه بالموت فكل هؤلاء الذين معه تجرفهم سيرورة واحدة لا غير، سيرورة الانحطاط التي تضع هذا البطريرك بالصدفة في السلطة، ان هذه الرواية هي ترجمة دقيقة لحيثيات الواقع القمعي،السلطوي والأيديولوجي بغض النظر عن المكان أو الزمان، الشيء الوحيد الذي يتغير هو أسماء الطغاة و عدد ضحاياهم الجدد.

ثمة اشارة لا بد منها... نقول ان الكثير الكثير من حكام العالم الثالث في الماضي والحاضر وربما المستقبل أيضاً هم أجزاء صغيرة أو كبيرة ـ حسب الموقع الذي تقف أقدامهم عليه ـ من خريف البطريرك... والعمائم المنتشرة في العراق الآن واللحى المشذبة وملوك الطوائف وجندهم خير مثال على ذلك.

* كاتب من العراق يقيم في المانيا

قـــص

بشير زعبيه*

■ كعادته حين تخونه الذاكرة أو هو يبحث عن رقم لاسم ما..

فتح الصفحة عند الحرف الذي اختاره باحثا بنظره وأصبعه معا من أعلى الى أسفل ثم بتمهل قلب الصفحة والصفحة التي تليها وهنا سحب أصبعه فجأة وبدأ يقلب الصفحات بسرعة ويلاحقها بنظرات مرعوبة، ثم ألقى بها جانبا وكأنها عقرب خشي أن تلدغه متراجعا عن مشروع مكالمة هاتفية كان يعد لها..

جلس على حافة السرير لبعض الوقت وهو في حالة شرود قبل أن يعود اليها ويعيد تصفحها ولكن ببطء هذه المرة فتستوقفه بعض الصفحات ثم ينتقل الى غيرها شاردا ولم يعد يبدو عليه أنه يبحث عن شيء محدد..

كان ذلك منذ زمن عندما دون أول اسم في هذه الأجندة التي يفتخر بأنه حافظ عليها طوال هذه السنين ولن يغيرها.. بدأها بأسماء الأصدقاء ثم بعض رفاق الدراسة فزملاء العمل لتخرج فيما بعد عن النطاق المحلي فتضم أسماء تعرّف عليها في رحلات ومهام خارجية.. يتذكّر أول اسم أنثوي دونه وكيف كان يكتب تلك الأسماء في البداية مموهة.. تغيرت أرقام وكبرت أسماء وصارت تسبقها أحرف ونقطة تعرف باختصار عن أصحابها فهذا (أ). وذاك (د). وآخر (م). وأسماء النساء لم تعد مموهة.. اختفت أسماء وعادت بأرقام جديدة وغابت أخرى ولم تعد..

تعود بين حين وآخر أن يفتح الأجندة ويتصفحها بتمهل مستعرضا الأسماء حسب ترتيب أحرفها فيختار أحدها ويهاتفه ثم يكرر ذلك مع آخر وهكذا يحس أنه أدى واجبا كان لا بد منه، والا لماذا وجدت تلك الأسماء في هذه الأجندة ولماذا يحرص عل تدوينها و يحافظ عليها كمن يحافظ على كنز قديم؟ تعود أيضا ومنذ مدة أن يرسم خطا عريضا بلون بني لا يعرف لماذا اختاره تحديدا فوق الأسماء والأرقام التي يرحل أصحابها الى الأبد فيخفيها.. ولما فتح الأجندة هذه المرة متصفحا فوجئ بخطين بنيين على الصفحة الأولى ما كان ليعيرهما اهتماما لولا أنه عندما بدأ يقلب الصفحات اكتشف للمرة الأولى أن الخطوط البنية قد ازدادت وأن اسماء عديدة لم يعد يراها لا بد أنها قد اختفت تحت تلك الخطوط.. لذلك ارتعب وبدا شاردا وهو يتذكر بعض تلك الأسماء التي كان الى وقت قريب يلتقط أرقامها من هذه الأجندة وبلمسات معدودة يمكنه أن يرفع سماعة الهاتف لتأتيه أصوات أصحابها مفعمة بالحياة، والآن قد غابوا ولن يعودوا.. لم يشعر من قبل أن وقتا طويلا مرّ منذ أن دون الاسم الأول في هذه الأجندة الى آخر اسم فيها أخفاه خطه البني.. حتى ورقها بدأ يفقد بياضه الأول.. سارع باغلاق الأجندة فانتبه الى وجود بقع بنية بدأت تتشكل وتنتشر على غلافها الذي لم يره قديما باهتا كما هو الآن.. لم يعد يريد الرجوع الى هذه الأجندة... سيخفيها.. يمكنه استخدام جهاز الهاتف نفسه في تخزين الأسماء والأرقام وهو الذي ما كان يستهويه ذلك.. اتجه الى خزانة الملابس، سيدسها هناك في رف أو درج ما أو في جيب سترة قديمة.. وعندما فتح الخزانة تراجع على الفور وهو ينظر الى ملابسه وكأنه يعدّها ويعيد.. فوجئ أيضا أن ملابسه بدأ يغلب عليها اللّون البنّي.. لم تكن هذه ألوانه..

يتذكر أنه كان يختار ملابس ألوانها فاتحة ومزهرة.. دسّ الأجندة وأقفل باب الخزانة على عجل فوجد نفسه وجها لوجه أمام صورته في المرآة المثبتة على أحد بابيها.. رفع يده في حركة آلية محاولا أن يصلح من شعره لكن يده توقفت فوق رأسه في الوقت الذي دنا برأسه قليلا الى الأمام حتى كاد أنفه يلمس سطح المرآة وها هو اكتشاف جديد.. الخطوط المرسومة على وجهه تحت العينين وتلك التي تنحدر من جانبي الأنف أو من أسفل الذقن الى الرقبة بدت واضحة بلون بنيّ.. تحسسها بباطن أصابعه وكأنه يحاول مسحها ثم استدار بسرعة متجها نحو باب الغرفة.

لم يعد يطيق البقاء هنا.. سيخرج الى الشارع..

منذ أول استعمال لها أصبحت هي الشيء الأهم الذي يحرص علي أن يكون برفقته.. تغمره بهجة كلما فتحها وهمّ باضافة اسم جديد.. انها تزدحم بالحياة.. هكذا كان يقول لنفسه وهو يرى أجندته وقد ازدحمت صفحاتها بالأسماء. اليوم فقط اكتشف أن هذه الأسماء يمكن أن تنقص أيضا وتختفي من الأجندة.. وقد اختفت أسماء كثيرة..

طقس بجو الخريف يستقبله في الشارع وهو الذي لم يكن ليهتم من قبل بالفصول وتعاقبها.. فهي عنده اثنان،صيف حار طويل وشتاء بارد قصير.. لكن الآن لا حر ولا برد.. سماء لا تظهر زرقتها وشمس تطل بين غيمة وغيمة.. وأوراق سقطت من شجيرات الرصيف يحس بها ويراها بلونها البنّي تتكسر بين خطوة وأخرى تحت قدميه اللتين لا يعرف الى أين تقودانه فكل ما أراده فقط هو أن يهرب من الغرفة ومن الأجندة ومن المرآة ويخرج الى الشارع.. لكن من المؤكد أن وجهته ستكون تلك المقهى التي اعتاد التردد عليها منذ مدة في غير هذا الوقت ، لذلك يعلم أنه ربما لن يلتقي فيها أحد من الوجوه التي تعود رؤيتها هناك.. أراحه هذا الاستنتاج فاستسلم لقدميه وهما تقودانه الى المقهى..

وهناك قصد المقعد المعتاد في الزاوية نفسها.. مكان يتيح له مشهدا بانوراميا للمقهى من الداخل وللخارج عبر الواجهة الزجاجية التي تفصله عن الشارع ..وفي امكانه هذه اللحظة وهو في وضعه هذا أن يميز بوضوح حتى حركة الشفتين لذلك الشاب والفتاة وهما يتهامسان في مجلسهما عند الركن المحاذي للمدخل الذي يجلس قبالته.. يمكنه أيضا أن يسمع بعضا من حديثهما اذ يعلو مرفقا بضحكتين.. تدني الفتاة رأسها قليلا نحو الشاب وهي تبتسم مقربة بين حاجبيها مع حركة ناعمة من الرأس توحي بأنها تسأله، هكذا فسرها حين سارع الشاب بدس يده تحت فانلته وأخرج من جيب قميصه شيئا عرف على الفور أنه أجندة فيما مدت هي قلما أخرجته من حقيبتها الصغيرة.. أعاده المشهد فجأة الى الغرفة التي غادرها قبل قليل.. ركز نظره تجاه الأجندة قبل أن يهم الشاب بفتحها.. لاحظ أنها جديدة ولها غلاف بلون فاتح جميل ينسجم مع ألوان الملابس التي يرتديانها.. أجندته كانت كذلك في البداية.. لاحظ الشاب والفتاة بدورهما أن رجلا على المقعد المواجه يراقبهما ولا يبدو أنه يحس بأنهما تنبها اليه..بقي لحظات جامدا متسمر العينين كتمثال الشمع غير أنه انتبه أخيرا للفتاة وهي تنظر اليه وتهمس في أذن الشاب الذي كان قد خط شيئا في الأجندة وأعادها الى جيبه.. فابتسم بارتباك وهو لا زال ينظر اليهما وكأنه يقدم اعتذارا ثم قام متظاهرا بالبحث عن النادل وانسحب تاركا الشاب والفتاة والمكان خلفه وخلفهم الغرفة والمرآة والأجندة والشجر الذي يتعرى..

عليه الآن أن يبحث عن مكان آخر..

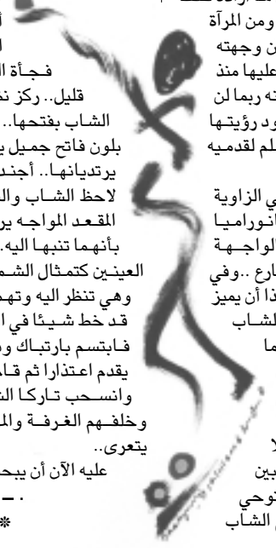

* كاتب من ليبيا يقيم في مصر